أسباب خسارة المال وتقليله

obeikandl.com

obeikandl.com

أسباب خسارة المال وتقليله

كما وضح الله تعالى طريق الخير فقد وضح طريق الشر، فمن اختار أحد الطريقين فليتوقع النتائج التي ستترتب عليه؛ فإذا كانت نتائج طريق الخير خيرًا وكسبًا للمال وحفظه وزيادته، فإن نتائج طريق الشر تكون خسارة للمال وتقليله وهلاكه.

فكما أن هناك أسبابًا لحفظ المال وزيادته، فهناك أيضًا أسباب لخسارة المال أو تقليله إذا عمل الإنسان بأحدها ترتب على ذلك خسارة في ماله أو إقلالاً منه، وهذا من العدل الإلهي جزاءً وفاقًا لمن أصر على أن يركب رأسه ويرتكب ما حرَّمه أو نهى عنه الله تعالى ورسوله ﷺ. وأسباب خسارة المال أو الإقلال منه كثيرة جدًا، وكذلك الطرق المحرمة للمعاملات المالية، وفيما يلي بعض منها.

١ - فعل السيئات:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾[1]، أي؛ إن يصبهم قحط وجدب

(١) سورة النساء، الآيتان: ٧٨-٧٩.

ونقص في الثمار والزروع وضيق في الرزق وضرر في الأموال تشاءموا وتطيروا وظنوا الظنون السيئة، و لم يعرفوا أن ذلك كله بقضاء الله وقدره، وأن ما يصيبهم من نقصان وضرر في الرزق والمال هو من قبل أنفسهم ومن أعمالهم السيئة هم عقوبة لهم بذنوبهم، وما يعفو عنه الله من سيئاتهم أكثر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «**لا يصيب عبدًا نكبة، فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر**»[2]، لأن الله تعالى حليم رحيم بعباده على ظلمهم ولو أراد أن يعجل لهم العقوبة على كل ذنب وكل سيئة ما بقي على الأرض من يدب عليها، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[3]، فهو تعالى يؤخرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ويعاقبهم على معاصيهم وسيئاتهم. وهكذا لو أراد سبحانه وتعالى أن يعاقب الإنسان في ماله على كل سيئة ما بقي لأحد دينار ولا درهم، ولكنه تعالى يعفو ويصفح ويؤخر.

ومع ظلم الإنسان لنفسه فإن رحمة الله تعالى تظل قريبة منه فلا يجزي الله السيئة إلا بمثلها على عكس الحسنة التي يضاعفها الله للعبد عشرة أضعاف؛ قال

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٧٧٣٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ٦١.

الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1]؛ وقال النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عزَّ وجلَّ، قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة**»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل ليُحْرَم الرزق بالذنب يصيبه**»[3]؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القبر والقلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق». فلا يتعجبن أحد إذا ما رأى نقصًا في رزقه وماله، وليراجع نفسه فيما عمله من سيئات ولو كانت صغيرة، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[4]، ويقول تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[5]؛ فمن يعمل الصالحات فإن نفع ذلك يعود على نفسه، ومن يعمل السيئات فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ولا يعاقب الله أحدًا إلا بذنبه، ولا يظلم الله أحدًا.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: من همَّ بحسنة أو سيئة.

(٣) مسند أحمد، رقم: ٢٢٢٨٦، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

(٤) سورة الزلزلة، الآية: ٨.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

٢ - أكل أموال الناس بالباطل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾[١].

ينهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل، أي؛ بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية، ويدخل في ذلك أشياء كثيرة منها: النصب والاحتيال والغصب والسرقة والقمار وجحد الحقوق، وما لا تطيب به نفس مالكه، أو حرَّمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه، كمهر البغي وحلوان الكاهن والساحر وأثمان الخمور والخنازير وغير ذلك.

وكل من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل، ومن الأكل بالباطل؛ الرجل يكون عليه مالٌ لإنسان ما فينكر المال، ويشتكي إلى القاضي وهو يعرف أن الحق عليه، وأنه آكل للحرام، فيقضي القاضي له، فالحرام لا يصير حلالاً بقضاء القاضي؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[٢]، إلا أن تكون هذه الأموال عن تجارة مشروعة تمت برضا

(١) سورة النساء، الآيتان: ٢٩-٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

البائع والمشتري فليس في ذلك حرج، وقد هددهم الله تعالى وتوعدهم بالنار إذا فعلوا ما نهاهم عنه في الآية؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «**ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال أَمِنْ حلال أم مِنْ حرام**»[1].

٣ - الربا:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2]، وقال رسول الله ﷺ: «**الربا سبعون حوبًا، أيسرها أن ينكح الرجل أمه**»[3].

لقد حرَّم الله الربا وأمر عباده المؤمنين بترك الربا وتجنبه وتوعدهم بالحرب إن لم يفعلوا ذلك ويطيعوا أمره؛ قال ابن عباس: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، وقد «**لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء**»[4]؛ فأي خسارة أعظم من أن يصبح المرابي ملعونًا ومطلوبًا لحرب من الله تعالى ورسوله ﷺ؟! فالعمل في الربا ليس قاصرًا على من يأكل الربا ويزيد ماله به أو يؤكله غيره، وإنما يشمل أيضًا كل من يكتبه ويشهد عليه وهم سواء مع من يأكل الربا أو يؤكله، ولهذا حرَّم العلماء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب: قول الله عزَّ وجلَّ: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافًا مضاعفة﴾**

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ١٨٤٤.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب المساقاة، باب الربا.

obeikandl.com

العمل في المصارف التي تتعامل بالربا؛ لأن العامل فيها يعين على الباطل المحرم وقد نهى الله عزَّ وجلَّ عن ذلك فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1].

فالذي يتعامل بالربا ليكسب دراهم معدودة زيادة على رأس ماله إنما هو في الواقع عدو ماله، ويعمل بالسبب الذي يؤدي إلى ضياع ماله كله بما فيه رأس ماله علاوة على ما دخله من الربا، أما الزيادة التي تحصل من الربا في ظاهر الأمر فهي وإن كثّرت ماله في الظاهر لكن الربا سيمحق هذا المال كمن يشعل النار في ماله، فهل يضمن المرابي أن لا يحصل لنفسه أو لأحد من عائلته مكروه ما يكلفه ما كسبه من الربا وفوقه جزءاً من رأس ماله وربما كله؟ لقد قال رسول الله ﷺ: «**ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة**»[2]. وهذا لا بد حاصل ولو بعد حين.

وأذكر في هذا المقام قصة رجل يملك عقارات متعددة وأرصدة كبيرة في المصارف يشغلها في الربا، وقد نصحه عدد من الناس بعدم التعامل في الربا، ولكنه لم يستجب لأحد، ثم عزم على الهجرة من بلده العربي إلى بلد غربي -ربما لأنهم يدفعون نسبة أكبر من الربا- وكان قد باع جميع العقارات وأخذ ماله معه، وسافر بعائلته جميعًا، وبعد عدة سنوات عاد بمفرده إلى بلده دون أحد من أفراد عائلته وبدون مال، وبدأ يبحث عن عمل ليبدأ من الصفر، فماذا حصل معه خلال هذه السنوات القليلة؟

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ١٨٤٨.

obeikandl.com

لقد عمل في التجارة وأخذ يخسر ماله شيئًا فشيئًا، ومن جانب آخر فقد كانت هذه الخسارة تؤثر على نفسه كثيرًا حتى طلّق زوجته الطلقة الأولى ثم أرجعها، فلم يلبث أن طلقها الثانية، ثم أرجعها فلم يمض وقت طويل حتى طلقها الثالثة، ثم أخذ يبحث عن مخرج يعيد فيها زوجته إليه حتى إنه عاد إلى بلده ليحصل من شيخ ما على فتوى تلغي طلقته الثالثة التي لا يمكن بعدها أن يعيد زوجته إليه؛ ولكنه لم يحصل على شيء وعاد خائبًا إلى البلد الذي يقيم فيه، وكانت مطلقته تصرح بأنها لم تعد ترغب به حتى ولو وجد فتوى أو مخرج ما من طلقته الثالثة حتى إنها أخيرًا سألته بأنها إلى متى ستبقى تحتجب عنه في البيت؟ وطلبت منه أن يجد له مكانًا آخر ليقيم فيه، فخرج من بيته ذليلاً يبحث عن مأوى، فطلب من ابنته المتزوجة أن يقيم عندها فوافقت، ثم لم يمض زمن طويل حتى أبلغته بطريقة غير مباشرة أن وجوده يسبب بعض المشكلات بينها وبين زوجها وأنه لا يمكن أن يقيم دائمًا في بيتها، فخرج ذليلاً من بيت ابنته، ولما لم يعد هناك مكان يؤويه عاد إلى بلده الأصلي ليقيم في بيت شقيقته ويبحث عن عمل، بل وأوصى أقاربه أن يبحثوا له عن زوجة غنية تملك بيتًا ومالاً لكي يتزوجها وربما ليوفر عليه وقتًا فلا يحتاج للبدء من الصفر تمامًا! فهذا الإنسان لم يخسر ما كسبه من الربا ومعه رأس ماله وما أكله من حقوق الناس فحسب، بل لقد خسر زوجته وأولاده أيضًا فوق كل ذلك، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[1]. قال ابن كثير: «يخبر الله تعالى أنه يمحق

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.

الربا، أي؛ يذهبه إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعدمه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة»[1].

٤ - الرياء:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ﴾[3].

إن الذين ينفقون أموالهم رياء ويظهرون للناس أهم يريدون وجه الله، ويريدون البر والإحسان؛ وإنما قصدهم مدح الناس لهم، أو شهرهم بالصفات الجميلة ليُشكَرون بين الناس، أو ليقال عنهم إهم كرماء وفاعلو خير ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع أنظارهم عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه فهؤلاء يُبطل الله عزَّ وجلَّ صدقاهم، ويخسرون ما يمكن أن ييسره الله تعالى لهم من زيادة الخير والمال في الدنيا والأجر والثواب في الآخرة فيما لو أخلصوا

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ص: ٣٣٦/١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

obeikandl.com

النية لله تعالى؛ ولكنهم عندما راؤوا الناسَ بصدقاهم صار حالهم كحال المثل الذي ضربه الله عزَّ وجلَّ؛ فمثل المرائي بإنفاقه كمثل الصفوان ــ وهو الحجر الكبير الأملس ــ عليه تراب فيظنه الظان أرضًا منبتة طيبة؛ فنـــزل عليه مطر شديد أزال التراب فتركه صلدًا أملسًا فلم يبق عليه شيء من ذلك التراب؛ وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله ولا يقدرون على الانتفاع بثواب شيء مما كسبوا عند حاجتهم إليه؛ فالقاصد بنفقته الرياء غير مثاب كالكافر؛ لأنه لم يقصد بنفقته وجه الله تعالى فيستحق عليها الثواب حتى ولو رأى الناس أن له نفقات كالتراب.

قال رسول الله ﷺ: «**إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه... رجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِي به فعرَّفه نِعَمه فعَرَفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنفَق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه ثم ألقي في النار**»[1]، أي؛ قد أردت بفعلك أن يقال عنك جواد كريم فقد قيل، وأخذتَ جزاءك في الدنيا، وليس لك جزاء في الآخرة؛ فأي خسارة أعظم من سحبه على وجهه وإلقائه في النار بسبب إرادته السمعة والشهرة من وراء إنفاقه؟.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

إن معظم الناس قد سمعوا بحاتم الطائي الذي يُضرب به المثل في الكرم والجود حتى إنه يقال: (الكرم الحاتمي)، وإذا أرادوا أن يصفوا أحدًا بالكرم قالوا: أكرم من حاتم طي؛ ونحو ذلك من الأقوال، أي إنه أصبح مقياسًا للكرم والجود، ولكن النبي ﷺ قد أخبرنا أن حاتم هذا كان يريد الذِّكر والسمعة والشهرة، وقد أدرك ذلك وصار بالفعل مشهورًا بالكرم، فقد سأل عديٌّ بن حاتم النبيَّ ﷺ فقال: قلت: يا رسول الله، إن أبي كان يصل الرحم ويفعل كذا وكذا، قال: «**إن أباك أراد أمرًا فأدركه**» يعني: الذِكر[1].

٥ - إتلاف أموال الناس:

قال رسول الله ﷺ: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله**»[2].

هذا عِلْم من أعلام النبوة لما نرى ونسمع مما يحصل ممن يفعل شيئًا من هذين الأمرين. وظاهر الحديث أن من يأخذ أموال الناس عن طريق الدَّيْن أو نحوه وفي نيته عدم ردها -وهو إتلافها- أتلفه الله في معاشه أو في نفسه في الدنيا؛ لأن الجزاء قد يكون من جنس العمل، وربما يكون الإتلاف عذاب الآخرة، وربما كلاهما.

---

(١) مسند أحمد، رقم: ١٨١٧٨، وقال حمزة أحمد الزين: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض، باب: من أخذ أموال الناس يريد أداءها، أو إتلافها.

٦ - أكل أموال اليتامى:

﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[(١)].

يأمر الله تعالى الأولياء والأوصياء بدفع الأموال إلى اليتامى، وأن لا يخلطوا أموالهم بأموالهم أو يتسلطوا عليها بالأكل والانتفاع، وبيَّن تعالى أن أكل أموال اليتامى ظلم، وهو من الكبائر ومن السبع الموبقات، وأن من أكل مال يتيم فإنما يأكل في بطنه نارًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[(٢)].

٧ - الحرص والبخل:

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾[(٣)].

(١) سورة النساء، الآية: ٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠.
(٣) سورة محمد، الآيات: ٣٦-٣٨.

obeikandl.com

يخبر الله تعالى أن حاصل الدنيا هو اللعب واللهو إلا ما كان منها لله تعالى، ويخبر الله عزَّ وجلَّ أنه غني عن الناس، ولا يطلب منهم شيئًا من أموالهم لنفسه أو لحاجة منه إليه، وإنما فرض عليهم الزكاة ــ وهي جزء بسيط من أموالهم ــ مواساة لإخوانهم الفقراء، فيعود نفع ذلك على المزَكِّين، ويرجع ثوابه إليهم.

ثم يقول تعالى إنه إن سألهم بعض أموالهم يبخلوا ويُخرجوا أضغانهم، وها هم يُدعون للإنفاق في سبيل الله فمنهم من يبخل ولا يجيب إلى ذلك. والحقيقة أن من يبخل فإنما يبخل على نفسه، فيمنع عنها الأجر والثواب ويعود وبال ذلك عليه، ويخسر خسرانًا مبينًا في الدنيا والآخرة، لأن الله عزَّ وجلَّ هو الغني عن كل ما سواه ولا يحتاج أموالهم، وهم الفقراء بالذات إليه، وفقراء إلى أموالهم؛ فإن تولوا عن طاعته واتباع شرعه يستبدل قومًا غيرهم أطوع لله منهم، ولا يكونوا في البخل بالإنفاق في سبيل الله مثلهم. كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾[2].

وهؤلاء الذين يبخلون فلا ينفقون مما رزقهم الله من الأموال حرصًا منهم على جمعها وعدم تعريضها للنقصان؛ لا يظنوا أن هذا الفعل هو خير لهم، بل هو

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٣.

شر لهم ومضرة عليهم في دينهم، وربما كان في دنياهم؛ ثم مآل أموالهم يوم القيامة ما أخبر الله تعالى عنه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1]، فأموالهم نفسها تتحول يوم القيامة إلى أداة لتعذيبهم بحسب حجمها الذي صنعوه بأموالهم التي بخلوا بها و لم ينفقوها في سبيل الله تعالى.

وقد تمنى بعض الناس في عهد النبي ﷺ أن يرزقهم الله من فضله وعاهدوا الله تعالى على أن يتصدقوا ويكونوا من الصالحين، فاستجاب الله لهم فرزقهم الرزق الواسع ولكنهم بخلوا به وصاروا من المنافقين وسخط الله عليهم؛ قال الله تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾[2]. وهؤلاء الذين يعاهدون الله ثم ينقضون عهده يُعرِّضون أنفسهم للهلاك، أو لخسارة بعض ما بأيديهم من المال؛ لأن الله سبحانه وتعالى يسلط عليهم من يفعل ذلك بهم؛ كما أخبر بذلك النبي ﷺ حيث

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٢) سورة التوبة، الآيات: ٧٥-٧٨.

قال: «**ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم**»[1]. قال الحسن رحمه الله: «والله ما أعز الدرهمَ أحدٌ إلا أذلَّه الله». فالبخيل بعيد عن الله، بعيد عن الناس.

وقد حذَّر الله تعالى من الشيطان بأنه ينهى العبد عن الإنفاق خشية الإملاق، ويُخوِّفه من الفقر ليمسك ما بيده فلا ينفقه في مرضاة الله؛ قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾[2]؛ فوعَدَ الله تعالى بالفضل لمن ينفق المال في سبيل الله في مقابلة ما يعد به الشيطان من الفقر.

وكذلك حذَّر النبي ﷺ من البخل وإنه أفسد لدين المرء من الذئاب الجائعة أُرسلت في الغنم فقال ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[3]. وحذَّر النبي ﷺ أيضًا بأن البخل بالزكاة وعدم إخراجها ليس سببًا لمنع الرزق والخسارة في الدنيا فحسب، بل أيضًا سبب لمنع المطر من السماء، قال عليه الصلاة والسلام: «**ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا مُنِعوا القَطْر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا**»[4].

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ٣٢٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

(٣) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٩٣٥.

(٤) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ٣٢٤٦.

obeikandl.com

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾[١]؛ فقد وعد الله بالتيسير لمن ينفق في وجوه البر، وتوعد بالتعسير على من يبخل ويستغني. والملائكة تدعو الله كل يوم أن يعطي المنفق خلفًا والممسك تلفًا؛ قال رسول الله ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا مَلَكَان ينـــزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا**»[٢]، ومن المحتمل تلف ذلك المال بعينه أو تلف نفس صاحب المال.

وقد أخبر النبي ﷺ أن أخبث المنازل عند الله تعالى وأخسها وأحقرها: صاحب المال الذي يصرفه في شهوات نفسه بغير علم؛ فيمسك تارة حرصًا وحبًا للدنيا، وينفق تارة أخرى للسمعة والرياء والفخر والخيلاء، فلا يعلم أن لله حقًا في ماله كالزكاة والصدقة ونحو ذلك من الحقوق المتعلقة بالله وبعباده، ولا يتقي فيه ربه لجهله في أخذه وصرفه، ولا يصل به رحمه لقلة رحمته وكثرة حرصه وبخله؛ قال عليه الصلاة والسلام: «**إنما الدنيا لأربعة نفر:... وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهو بأخبث المنازل**»[٣].

---

(١) سورة الليل، الآيات: ٨-١١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: قول الله تعالى: **﴿فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى..﴾**.

(٣) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٨٩٤.

٨ - المن والأذى:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾[١].

لقد أخبر الله عزَّ وجلَّ أن المن والأذى مبطلان لثواب الصدقة، إنما الثواب يكون لمن أراد بإنفاقه وجه الله تعالى وثوابه. والمنُّ: ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها؛ مثل أن يقول: قد أحسنت إليك وأعطيتك، وشبه ذلك من الأقوال. وقال بعضهم: المن: التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطَى فيؤذيه. والمن من الكبائر، وقد ثبت أن المنَّان هو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم؛ قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**» قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرارٍ، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «**المسبل، والمنَّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»[٢]. أما الأذى فهو: السب والتشكي، كقول القائل: ما أكثر إلحاحك، أو خلَّصنا الله منك وشبه ذلك. والأذى أعم من المن لأن المن جزء من الأذى.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية.

obeikandl.com

فالصدقات تبطل بما يتبعها من المن والأذى كما تبطل صدقات من ينفق ماله رياء الناس؛ فما بقي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى. فالذي يؤذي ويَمُنّ بأعطيته ولا يعطي شيئًا إلا منّةً ما هو إلا خاسر عظيم في الدنيا والآخرة.

٩ - الشكوى إلى الناس:

قال رسول الله ﷺ: «**من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسدَّ فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل**»(١)؛ فمن أصابته شدة حاجة أو فقر أو ضيق معيشة فعرضها على الناس، وأظهرها بطريق الشكاية، وطلب إزالة فاقته منهم، واعتمد في سدها على سؤالهم لم تُسدَّ فاقته ولم تُقض حاجته، وكلما سُدَّتْ حاجته أصابته أخرى أشد منها، لأنه ترك القادر على حوائج جميع الخلق الذي لا يُغلق بابه، وقصد الذين يعجزون عن جلب النفع لأنفسهم ودفع الضرر عنها.

قال العلقمي: بل يَغضبُ اللهُ على من أنزل حاجته لغيره العاجز وهو القادر على قضاء حوائج خلقه كلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء. وقد قال وهب بن منبه لرجل أتى الملوك: ويحك أتأتي من يغلق عنك بابه ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار ويظهر لك غناه؟ فالعبد عاجز عن جلب مصالحه ودفع مضاره ولا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله تعالى(٢).

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٨٩٥.
(٢) فيض القدير للمناوي، ص: ٦/٦٦.

١٠ - إتيان السفهاء الأموال:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [(١)]. السَّفَه: الجهل والخرق وفساد البصيرة وعدم النظر في العواقب. وأصل السفه في كلام العرب: الخفة والرقة. والسفه: ضد الحلم. والسفهاء في هذه الآية؛ قال ابن عباس: هم بنوك والنساء. وقيل: النساء والصبيان. وقيل: كل من يستحق الحَجْر. قال الطبري: الصواب عندنا أنها عامةٌ في حق كل سفيه صغيرًا كان أو كبيرًا، ذكرًا كان أو أنثى، والسفيه: هو الذي يضيع المال ويفسده بسوء تدبيره.

فالله جلَّ جلاله ينهى عن إعطاء الأموال للسفهاء، وتمكينهم من التصرف فيها؛ لأن السفيه لا يحسن النظر لنفسه في ماله، ولا يؤمن منه إتلاف ماله في غير وجه. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول: لا تعمد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو ابنك ثم تنظر إليهم وإلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم.

وقد حصل معي موقف يؤكد هذا الأمر؛ فقد كنت ذات يوم في مجمع حكومي، فاقترب مني رجل كبير في السن يبدو عليه التعب والمرض وحالته يُرثى لها، فسألني عن مكان مكتب النيابة العامة، وأخذ يحكي لي قصته بأنه

(١) سورة النساء، الآية: ٥.

يريد أن يقدم شكوى ضد أبنائه؛ بسبب عدم إنفاقهم نفقة كافية له ولوالدهم، وذكر لي بأنه كان صاحب محل بقالة وعدة شقق، ولكنه قام فيما بعد بتسجيل المحل والشقق بأسماء أولاده ولم يترك شيئًا باسمه ثقة بأولاده الذين تعب في تربيتهم وجعلهم أغنياء بأمواله التي تنازل لهم عنها، ولم يَشُكَّ لحظة واحدة بأن أولاده سيعقّونه ويحرمونه من أبسط حقوقه عليهم ألا وهي ما يكفيه وزوجته من النفقة، وقد جاء ليشكوهم إلى النيابة العامة عسى أن يعيدوا له حقوقه وأمواله.

أشفقتُ على هذا العجوز وتأثرتُ كثيرًا لقصته حتى إنني لحقت به لأسمع جواب النيابة العامة له بعد سماعهم قصته، فسمعتهم يسألونه باستغراب: هؤلاء أولادك يا عم، فكيف تريد أن تشتكي عليهم؟! ويبدو أنهم لم يتعاطفوا معه بل بكلامهم هذا يثنونه عن تقديم الشكوى أو إيجاد حل لمشكلته!.

قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يدعون الله عزَّ وجلَّ فلا يُستجاب لهم:... ورجل آتى سفيهًا ماله؛ وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾**»(1).

١١ - إضاعة المال:

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»(2). إن الله عزَّ وجلَّ يكره إضاعة المال؛ وإضاعته تكون بصرفه

(١) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٣٠٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: قول الله تعالى: ﴿**لا يسألون الناس إلحافًا**﴾.

في غير الأمور الشرعية، والسرف والتبذير في إنفاقه في غير حق، وتعريض المال للتلف، وسبب النهي أنه إفساد والله لا يحب المفسدين، ولأنه إذا أضاع ماله تعرض لما في أيدي الناس.

وينهى الله سبحانه أيضًا عن الإسراف والتبذير في إنفاق المال لأن فيه إضاعة وإتلاف للمال فقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾[١]؛ ومن أنفق درهمًا في حرام أو فساد أو في غير حق فهو مبذِّر. وقيل: إن من إضاعة المال أن تدفع مالك مضاربة أو إلى وكيل لا يحسن التجارة، ويجهل الطرق الصحيحة والطرق الفاسدة للبيع والتجارة، وما يحل وما يحرم منها، أو تدفعه إلى الكفار؛ ولهذا كره العلماء أن يوكِّل المسلم ذِمّيًا بالشراء والبيع، أو يدفع إليه مضاربة؛ لما يخاف من معاملته بالربا وغيره.

فالله تبارك وتعالى قد نبَّه المؤمن بأنه ليس المالك المطلق لما لديه من الرزق والمال؛ ولهذا لم يطلِق له الحرية الكاملة في التصرف فيه إسرافًا وتبذيرًا وتضييعًا، وأخبره بأنه سيسأله يوم القيامة عن ماله فيما أنفقه، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس:... وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه**»[٢].

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٩٦٩.

obeikandl.com

١٢ - العمل بالحرام:

قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس! اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حلَّ، ودعوا ما حَرُمَ**»(١).

لقد نهى الإسلام عن كل عمل أو بيع حرام خبيث أو فيه شيء من الإثم؛ لأن العمل الحرام وإن كان ظاهره كسب المال إلا أنه سيؤول إلى خسارة عاجلاً أم آجلاً؛ لأن الإسلام حين ينهى عن العمل الحرام فلأجل اجتناب النتائج السيئة التي رتبها الله على الحرام، وتطال المال الحرام المكتسب إما بهلاكه أو بضياعه أو بخسارته أو بصرفه على مصائب وأمراض وبلاء أو نحو ذلك، وهذا في الدنيا فقط، فإذا صار إلى الآخرة وجد الخسران الأعظم الذي لا يقارن بما خسره من مال في الدنيا، فيعاقبه الله بالنار جزاءً وفاقًا لما اقترفه في الدنيا من العمل الحرام.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن كل لحم نشأ من أكل الحرام فالنار أولى به؛ قال ﷺ: «**إنه لا يربو لحم نبت من سُحت، إلا كانت النار أولى به**»(٢)، ولهذا عندما يأمر الله تعالى بالإنفاق في سبيل الله فإنه عزَّ وجلَّ يأمر أن يكون المال من الحلال الطيب؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾(٣)؛

(١) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ١٧٤٣.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٥٠١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

obeikandl.com

فحتى لو أنفق آكل الحرام مالاً كثيرًا في وجوه البر والإحسان، وتصدق على الفقراء والمساكين من ماله الحرام؛ فإن الله جلّ جلاله لا يقبله منه؛ لأنه طيب ولا يقبل إلا طيبًا، حتى الدعاء؛ فكيف يستجيب الله دعاء من يأكل الحرام؟!.

قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس! إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1] **وقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[2]. **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذيَ بالحرام؛ فأنَّى يُستجاب لذلك؟**»[3]؛ فالنبي ﷺ يحث على الإنفاق من الحلال وينهى عن الإنفاق من غيره، ويبلغ ﷺ الناس بأنه من أين وكيف يُستجاب دعاء من كان مأكوله ومشروبه، وملبوسه ونحو ذلك من حاجات ولوازم الإنسان في هذه الحياة حرامًا؟! وقد تنبأ النبي ﷺ بأمر لم يكن في زمنه وحذّر من فتنة المال، فقال عليه الصلاة والسلام: «**يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن الحلال أم من الحرام**»[4].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب: الحث على الصدقة وأنواعها وأنها حجاب من النار.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب: من لم يبال من حيث كسب المال.

فيجب على كل من يحرص على عدم الوقوع في خسارة لماله أن يجتنب كل عمل أو تجارة أو بيع فيه حرام وإثم؛ وقوله ﷺ عن أطيب الكسب إنه «**كل بيع مبرور**»، أي؛ كل بيع حلال لا غش فيه ولا خيانة، ولا محرم ولا مكروه. وقد حرَّم الإسلام أعمالاً ومعاملات وبيوع معينة يجب عدم العمل بها حتى لا يقع الإنسان في الحرام، وبالتالي يخسر المال ويستحق عقاب الله؛ ومن هذه الأعمال والمعاملات والبيوع:

- الحلف في البيع: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم وكثرة الحَلف في البيع فإنه ينفق ثم يمحق**»[1]، وقال ﷺ: «**الحَلِفُ مَنْفَقة للسلعة، ممحقة للبركة**»[2]. فالحلف قد يبيع السلعة إلا أنه قد ينقص أو يمحو أو يبطل بركة الربح، إما بخسارة تلحقه في ماله، بأن يسلط الله تعالى عليه وجوهًا يتلف فيها ماله: إما سرقة أو حرقًا أو غصبًا، أو ينفقها على العلاج من أمراض تصيبه أو تصيب أحدًا من أهله وأولاده، أو بإنفاقه في غير ما يعود نفعه إليه في العاجل أو ثوابه في الآجل، أو بقي عنده وحرم نفعه، أو ورثه من لا يحمده، أو غير ذلك مما شاء الله تعالى، لأن الله عزَّوجلَّ يبغض التاجر والبيَّاع الحلاَّف؛ كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «**أربعة يبغضهم الله تعالى: البياع الحلاف...**»[3]. والتاجر أو البائع الذي يبغضه الله تعالى لا يمكن أن يوفق في عمله أو ينجح فيه، ولا

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساقاة، باب: النهي عن الحلف في البيع.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب: ﴿**يمحق الله الربا ويربي الصدقات**﴾.

(٣) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٨٨٠.

يمكن أن يبارك الله عزَّ وجلَّ في رزقه، حتى وإن أنفق ما عنده من السلع بالحلف؛ لأن هذه هي سنة الله في خلقه.

والمراد بهذا الحلف الصادق وهو مكروه من غير حاجة، فإن كان الحلف كذبًا فهو محرم وحال صاحبه سيئة جدًا في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(١)]، فهؤلاء يحلفون كذبًا ليكسبوا مبالغ زهيدة ودراهم معدودة؛ وقال النبي ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحَلف الكاذب**»[(٢)].

- التطفيف في الوزن: قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾[(٣)].

﴿المطففين﴾ هم الذين إذا اشتروا واكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل وأخذوا الزيادة، وإذا باعوا وكالوا للناس ووزنوا لهم انقصوا الوزن؛ وكل ذلك ليس إلا من أجل كسب طفيف ولهذا سُمُّوا بالمطففين، وقد توعدهم الله

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف.

(٣) سورة المطففين، الآيات: ١-٣.

obeikandl.com

بهذا الوعيد العظيم فقال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾[1]، ففي هذا الإنكار والتعجب وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظيم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصف ذاته برب العالمين، بيان بليغ لعظم الذنب ، وتفاقم الإثم في التطفيف.

لقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾[3]، وقد أمر الله تعالى شعيبًا عليه السلام أن ينهى قومه عن نقصان الميزان فقال تعالى حكاية عنه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾[4]، وأمره تعالى أن يدعوهم إلى الوفاء في المكيال والميزان وعدم الإفساد في الأرض: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[5]. وقد أهلك الله تعالى قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال.

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ٤-٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٩.

(٤) سورة هود، الآية: ٨٤.

(٥) سورة هود، الآية: ٨٥.

فمن الواجب على البائع تجنب التطفيف في الوزن ولا يظن أن أمره هينًا بل هو عند الله عظيم، وأن يوفي البائع الكيل والميزان حتى لا ينـــزل به عذاب الله عزَّ وجلَّ. وقد قال رسول الله ﷺ: «**خمس إذا ابتُليتُم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن:... ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أُخِذوا بالسنين، وشدة المؤونة وجَور السلطان عليهم**»(١).

- <u>الغش في البيع</u>: عن أبي هريرة ﷺ؛ قال: «مرَّ رسول الله ﷺ برجل يبيع طعامًا، فأدخل يده فيه، فإذا هو مغشوش، فقال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من غش**»(٢). وعنه أيضًا: «أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال: «**ما هذا يا صاحب الطعام**»؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: «**أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني**»(٣). فالبائع الذي يحرص على أن لا يراه الزبون وهو يغش سلعته ينسى أن الله تعالى يراه، وهو الرقيب الحسيب وعلى كل شيء شهيد، وسيجازيه على غشه بما يناسبه من الخسارة في الدنيا والآخرة.

وكذلك الذي يبيع سلعة فيها عيب ولا يبين للمشتري هذا العيب فهو غاش له ولا يحل له ذلك؛ قال رسول الله ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، ولا**

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ٣٢٤٦.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ١٨٠٩.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: قوله ﷺ من غشنا فليس منا.

obeikandl.com

يحل لمسلم باع من أخيه بيعًا فيه عيب إلا بيَّنه له»(1)، وأخبر ﷺ أن غش البائع وكذبه يمحق بركة بيعه؛ قال ﷺ: «**البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا؛ فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحِقت بركة بيعهما**»(2).

- أخذ الرشوة: إن الرشوة من المعاملات التي حرمها الشرع، وهي سبب لمحق المال وخسارته وربما خسارة العمل؛ وقد لعن النبي ﷺ الراشي والمرتشي فقال ﷺ: «**لعنة الله على الراشي والمرتشي**»(3)، أي؛ معطي الرشوة وآخذها؛ فما بالك بملعون من الله تعالى، هل سيبارك الله في رزقه ويزيد ماله أم العكس؟!

فالعامل لا يجوز له أن يأخذ الرشوة مقابل استغلال وظيفته، وهو لو جلس في بيته لما رشاه أحد، وإنما ذلك يكون من أجل استغلال موقعه ومنصبه في العمل ليحق باطلاً أو ليبطل حقًا ونحو ذلك، ومن يفعل ذلك فهو ملعون من الله عزَّوجلَّ، وربما بلغت الرشوة به الكفر، قال مسروق: القاضي إذا أكل الهدية فقد أكل السحت، وإذا قبل الرشوة بلغت به الكفر.

حتى الهدية فلا يجوز للعامل أو الموظف أن يأخذها لمجرد أنه يشغل هذا المنصب، وقد استعمل النبي ﷺ رجلاً من بني أسد يقال له ابن الأتبية على

---

(1) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٦٧٠٥.

(2) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا».

(3) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ١٨٧١.

obeikandl.com

صدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أُهديَ لي. فقام النبي ﷺ على المنبر -قال سفيان أيضًا: فصعد المنبر- فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا لك وهذا لي، فهلاَّ جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيُهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيرًا له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تَيْعَر**» -ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه- «**ألا هل بلغت**»؟ ثلاثًا»[1]. ففي هذا الحديث بيان أن هدايا العمال والموظفين حرام وغلول؛ لأنه خان عمله ووظيفته وأمانته، ولا يمكن أن يبارك الله في الدنيا في رزق خائن يغل ويأكل الحرام، أما في الآخرة فمصيره كما ذكر النبي ﷺ من أنه لا يغل ولا يأخذ شيئًا بطريق الحرام إلا حمله على رقبته؛ فيا لها من خسارة عظيمة، ويا لها من فضيحة كبرى أمام جميع الناس.

١٣ - التلهي بالمال والعمل عن العبادات:

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[2].

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله والعبادات وأهمها الصلاة؛ وهددهم وتوعدهم بأن من تشغلهم أموالهم أو أولادهم عن ذكره تعالى فإنهم هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب: هدايا العمال.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٩.

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(١)؛ يأمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالسعي إلى ذكر الله وصلاة الجمعة وترك البيع وأن ذلك خير لهم في الدنيا والآخرة إن كانوا يعلمون. فقد منع الله البيع وحرَّمه في وقت صلاة الجمعة على من كانت فرضًا عليه، وخص الله تعالى البيع؛ لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق عند صلاة الجمعة.

إن كل عمل يلهي عن عبادة الله يصير حرامًا، وكيف يريد الإنسان الرزق من الله وهو يلهى به عن عبادته؟! فالبيع نفسه أيضًا يمكن أن يصير حرامًا إذا لم يستجب البائع لنداء صلاة الجمعة؛ ولهذا أمر الله تعالى بترك البيع والسعي إلى ذكر الله إذا نادى المؤذن لصلاة الجمعة، وذم الله عزَّ وجلَّ الذين يقدمون التجارة والبيع على ذكر الله تعالى وطلب العلم الشرعي، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾(٢)، أي؛ إن ما عند الله تعالى من ثواب صلاتكم خير من أموال تجارتكم، والله خير من رزق وأعطى لمن توكل عليه وطلب الرزق في وقته؛ فمنه فاطلبوا، واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٩.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ١١.

obeikandl.com

قال رسول الله ﷺ: «**من تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبال الله في أي أوديته هلك**»[1]، وقال ﷺ: «**يقول الله سبحانه: يا ابن آدم! تفرغ لعبادتي، أملأ صدرك غنىً، وأسُدَّ فقرك. وإن لم تفعل، ملأت صدرك شُغلاً، ولم أسُدَّ فقرك**»[2]. إن أعمال الإنسان لا تنتهي، وجميع أصحاب القبور لم تنته أعمالهم وماتوا ولم يحصلوا من الدنيا إلا على ما كتبه الله تعالى لهم من الرزق، بالرغم من كل الحرص والسعي والحركة الدائمة التي أخذت معظم وقتهم وأشغلتهم عن عبادة ربهم، وألهتهم عن الصلاة والطاعات لأجل أن يجمعوا من المال أكثر مما رزقهم الله عزَّ وجلَّ، كما أخبر النبي ﷺ: «**من كانت الدنيا همَّه، فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له**»[3].

وهكذا الذين تلهيهم أعمالهم عن الصلاة والعبادات الأخرى؛ فلا أعمالهم انتهت ولا هم أطاعوا خالقهم بأداء الصلاة وحصلوا على اطمئنان القلب، فصار لزامًا أن يجدوا عكس ذلك وهو ما توعد الله به من يعرضون عن ذكره؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾[4].

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ٣٣١٤.
(٢) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ٣٣١٥.
(٣) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ٣٣١٣.
(٤) سورة طه، الآيات: ١٢٤-١٢٧.

فالذي يعرض عن العمل بدين الله وعن الذكر والصلاة ويقدم عمل الدنيا على ذلك فإن له عيشًا ضنكًا في هذه الحياة، لأن الحرص مستول عليه ولا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا فيصير عيشه ضنك، ورزقه مشوش، وحاله مظلمة، لا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء من الملابس الجميلة، وأكل ما شاء من المطاعم والمشارب اللذيذة، وسكن حيث شاء في البيوت الواسعة والقصور المنيفة، وركب ما شاء من السيارات الفخمة الثمينة؛ فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة، ثم له في الآخرة من العذاب ما هو أفظع وأشد من المعيشة الضنك التي عاشها في الدنيا، وهو أبقى ويدوم أبد الآباد، أعاذنا الله من ذلك.

١٤ - كفر النعمة:

قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[(٢)]؛ الشكر في اللغة: الظهور. والكفر: الستر والتغطية. كما وعد الله عزّوجلّ من شكر

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ١١٢.

الله على إنعامه أن يزيده من فضله، فقد توعد من كفر إنعامه بالعذاب الشديد، وكما أن الآية نص في أن شكر الله على الشيء سبب للمزيد منه، فهي نص في أن الكفر سبب للعذاب، وقد مضت سنة الله في خلقه أن من كفر نعمة الله و لم يشكر لله عليها يسلبها الله منه ويذيقه ضدها كما حدث مع القرى التي كفرت بأنعم الله.

وقد ضرب الله لنا الأمثال في القرآن لعلنا نتذكر أو نخشى أو نتفكر، فضرب تعالى لنا أمثالاً عن عاقبة الذين يكفرون نعمة الله عليهم ويجحدونها، ومن هذه الأمثال قصة سبأ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾(١).

فقد أنعم الله عزَّ وجلَّ على قوم سبأ الذي كانوا في اليمن نعمًا كثيرة، ووسَّع عليهم الرزق والعيش الهنيء الرغيد، والبلاد المرضية، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً

(١) سورة سبأ، الآيتان: ١٥-١٦، وراجع قصة سبأ في تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٣/٥٤٠-٥٤٣.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾[1]؛ فالأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهارًا.

وكان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضًا سيول أمطارهم وأوديتهم فعمدوا إلى بناء سد عظيم محكم حتى ارتفع الماء، وحكم على حافات ذينك الجبلين فكانوا يصرفون الماء حيث شاؤوا من أرضهم، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، وكان هذا السد ببلدة اسمها مأرب، قريبة من مدينة صنعاء فسمي السد باسمها وصار يُعرف بـــ (سد مأرب)، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه وأن يشكروا له بأن يوحدوه ويعبدوه ففعلوا ذلك إلى ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله وكفروا بنعمة الله وجحدوها ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾[2]؛ فبطروا النعمة وأحبوا السفر الشاق الذي يحتاجون في قطعه إلى الزاد والرواحل، والسير في الحر والخوف، فأرسل الله جلَّ جلاله سيل العرم وتهدم السد وسقط[3]، فانساب الماء في أسفل الوادي وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب الماء عن الأشجار التي بين الجبلين عن يمين وشمال فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الجنتان ذواتا الأشجار المثمرة

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٨.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٩.

(٣) أعيد بناء السد في زمننا هذا.

الأنيقة النضرة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل، ومزّقهم الله عزّ وجلّ كل ممزق، وفرّق شملهم فتفرقوا في البلاد بعضهم إلى عُمان، وبعضهم إلى الشام، وبعضهم إلى يثرب (المدينة المنورة)، وبعضهم إلى تهامة وبعضهم ههنا وههنا، وذلك بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، وجعلهم الله تعالى أحاديث للناس وسمرًا يتحدثون به من خبرهم وكيف مكر الله بهم وعاقبهم كما نتحدث نحن عنهم الآن ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ (1)؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (2).

ففي هذا الذي حلّ بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم، فنعم العبد الصبار الشكور الذي إذا أُعطي شكر؛ وإذا ابتلي صبر.

فهذه سنة الله فيمن أنعم الله عليه بالرزق الواسع ثم لم يشكر الله على ذلك؛ بل بطر وتجبر وطغى وكفر نعمة الله فيما أنعم عليه من الأرزاق بدلاً من ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ﴾ (3). ولا يظنن أحد أن كفر النعمة وعدم شكر الله عليها يتعلق باللسان فقط، كأن يمتنع عن

(1) سورة سبأ، الآية: ١٧.
(2) سورة سبأ، الآية: ١٩.
(3) سورة القصص، الآية: ٥٨.

قول: الحمد لله، الشكر لله، بل إن معنى كفر النعمة أن يستعمل النعمة في غير الحكمة التي أريدت بها، ومن ذلك: البغي بالمال والترفع به على خلق الله والتعاظم عليهم والتجبر بهم والفساد فيهم؛ كما فعل قارون الذي كان من قوم موسى فأهلكه البغي لكثرة ماله؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[(١)].

فقد آتاه الله من الأموال الكثيرة التي يثقل حملها على مجموعات من الرجال الأقوياء ووعظه قومه ونصحوه بأن لا يفرح ولا يبطر بما هو فيه من المال؛ لأن الله تعالى لا يحب الفرحين الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، ونصحوه بأن يستعمل ما وهبه الله من الأموال الطائلة في طاعة ربه والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل له بها الثواب في الدنيا والآخرة، وأن لا ينسى نصيبه من الدنيا مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح، وأن يحسن إلى خلق الله كما أحسن الله إليه، وأن لا تكن همته بما هو فيه أن يفسد في الأرض ويسيء إلى خلق الله لأن الله عزَّ وجلَّ لا يحب المفسدين. فبماذا أجاب قارون على نصيحة قومه؟ قال الله تعالى مخبرًا عن جواب قارون

(١) سورة القصص، الآيتان: ٧٦-٧٧، وراجع قصة قارون في تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ص: ٣/٤١٠-٤١٢.

obeikandl.com

لقومه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[1]، أي؛ إن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه أني أهل له وأني أستحقه ولمحبته لي ورضاه عني. فقال تعالى رادًا عليه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[2]، أي؛ قد كان من هو أقوى منه وأكثر جمعًا للأموال وما كان ذلك عن محبة منا له، ومع ذلك فقد أهلكهم الله بكفرهم وعدم شكرهم؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾[3]، أي؛ طغى أهلها وكفروا نعمة الله فيما أنعم به عليهم الأرزاق فأهلكهم الله بكفرهم؛ وعما قليل سيكون مصير قارون مثل مصيرهم؛ لأن الله جلَّ جلاله قد توعد من طغى في رزق الله أن يحل عليه غضبه، وويل لمن حلَّ عليه غضب الله تعالى؛ قال عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾[4].

فقد خرج قارون ذات يوم على قومه في زينة عظيمة وتجمُّل باهر، مفتخرًا على قومه وباغيًا عليهم، فتمنى من يريد الحياة الدنيا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون؛ لأنه ذو حظ عظيم من الدنيا، فحلَّ عليه غضب الله وهوى في الأرض.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥٨.

(٤) سورة طه، الآية: ٨١.

قال الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1]؛ فقد عاقبه الله جلّ جلاله بأن خسف به وبداره الأرض فما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو في نفسه منتصرًا لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره.

أما الذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما لقارون من الأموال فإنهم لما رأوا ما حلّ بقارون علموا أن المال ليس دليلاً على رضا الله عن صاحبه، وأن الله تعالى يعطي الرزق لمن يشاء ويمنع عن من يشاء، ويوسع ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة.

ومن كفر النعمة استعمالها في معصية الله؛ فمن استخدم ماله وتقوّى به على ارتكاب المعاصي كان ذلك كفرًا بنعمة المال، فكان ذلك سببًا في زوال هذه النعمة والإصابة بضدها وهو الفقر، ولهذا بعد أن قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ﴾، قال تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾، أي؛ إذا جحدتم حقي فلم تشكروني على نعمي فإن عذابي لشديد، وذلك بسلبها عنكم وعقابي إياكم، فوعد بالعذاب على كفر النعمة كما وعد بالزيادة على الشكر.

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٨١-٨٢.

والله تبارك وتعالى لا يحب الكفر ولا يرضاه لعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾[1]. إن الله جلَّ جلاله يأمر بالشكر وينهى عن كفر النعمة لا من أجله تعالى فهو تبارك وتعالى غني عنا وعن العالمين؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[2]؛ فهو تعالى غني عن شكر عباده، وكفر الإنسان بل كفر الناس أجمعين لن يضر الله شيئاً؛ قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[3]؛ إنما ينهى الله تعالى عن كفر النعمة لأجل مصلحة العبد؛ لأن ضرر الكفر وعقابه يعود على الكافر نفسه في الدنيا والآخرة؛ ولهذا لا يرضى الله لعباده الكفر حتى لا يضرون أنفسهم ولا يتعرضون لعذاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[4].

(١) سورة الزُمُر، الآية: ٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٨.

(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١٧٦-١٧٨.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

obeikandl.com

وقد يغدق الله عزَّ وجلَّ على عبد بالنعم الكثيرة والمال الجزيل، ولا يكون ذلك لمحبة الله له ورضاه عنه وأنه أهلٌ لهذه النعم ومستحق لها فقد يكون ذلك استدراجًا واختبارًا له أيشكر أم يكفر، وهذا نبي الله سليمان عليه السلام عندما رأى نعم الله عليه علم أن ذلك اختبار له، وحكى الله عزَّ وجلَّ عنه قوله فقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[1]، أي؛ يعود نفع الشكر وثوابه على الشاكر نفسه، وضرر الكفر وعقابه على الكافر نفسه ولا يضر الله شيئًا بكفره؛ لأن الله جلَّ شأنه غني عن العباد وعن عبادتهم وكريم في نفسه وإن لم يعبده أحد فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد؛ ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2]؛ فمن عصى الله و لم يشكره على نعمه فلن يضر الله شيئًا بل يضر نفسه، وسيعاقبه الله في الدنيا والآخرة بما يستحقه من سلب النعمة منه والعذاب في الآخرة.

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.